تاريخ فكرة إعجاز القرآن

منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر؛ مع نقد وتعليق

- ٥ -

٧ - ابن سراقة:

ويأتي ابن سراقة (٤١٠) فيؤلف كتاباً في الإعجاز ليس له أثر الآن وانما ذكره حاجي خليفة صاحب كشف الظنون بين كتب الاعجاز وقال إنه في الإعجاز من حيث الأعداد ذكر فيه من واحد الى ألوف ولا ندري ما يقصد بهذه العبارة المقتضبة « من حيث الأعداد من واحد الى ألوف » وقد تساءل الرافعي أيضاً عن المقصود منها وحار في تعليلها .

وذكر السيوطي رأي ابن سراقة في الاعجاز فقال (الاتقان للسيوطي ص ١٩٨): وقال ابن سراقة : « اختلف أهل العلم في وجه إعجاز القرآن فذكروا في ذلك وجوهاً كثيرة كلها حكمة وصواب وما بلغوا في وجوه اعجازه جزءاً واحداً من عشر معشاره » ثم يعدد أقوال الناس المختلفة في الإعجاز وأكثرها يتعلق بالبلاغة والفصاحة والنظم بصورة عامة ومعاني القرآن والغيب .

ونحن نرى من عبارة ابن سراقة : « فذكروا في ذلك وجوهاً كثيرة كلها حكمة وصواب » أو نستطيع أن نستنتج أنه كان يرى أن القرآن معجز بكل مافيه فكل وجهات النظر والنواحي المختلفة التي قيلت في إعجازه صحيحة وهو لا يمحص الآراء المختلفة فيأخذ ببعضها وينأى عن بعض وفيها المتناقض كالقول بالصرفة والقول بالاعجاز البياني فكلها عنده حكمة وصواب أو - كما يقولون - « خير وبركة » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

٨ً — ابن حزم الأندلسي :

ويتكلم ابن حزم الأندلسي المتكلم في كتابه «الفصل في الملل والنحل» عن الإعجاز فيذكر أقوالاً عدة من مسائله ويرد عليها ثم يذكر رأيه فيها وفي وجه الإعجاز ويتلخص ما أورده في أمور :

١ً — ذكر رأي الأشعري في أن المعجز هو القديم الذي لم يزل مع الله تعالى ورد رأيه لأن الإعجاز يبطل حينئذ فلا يمكن تحدي الناس بشيء لم يروه ويرجح قول الجمهور في أن المعجز هو الذي بأيدينا .

٢ً — يتعرض لزمن الإعجاز هل يقف عند حياة الرسول ، كما يقول بعض أهل الكلام الذين يرون أنه لو عورض في زمنهم لما بطلت المعجزة لأنها إنما قامت الحجة بها زمن النبي بعجز العرب عن معارضته ، أو إنه باق الى يوم القيامة كما يقول جمهور أهل الاسلام ويفهم من كلامه أنه يرجح رأي الجمهور .

٣ً — يذكر المعجز من القرآن فيقول إن قوماً يرون أن المعجز منه نظمه وقوماً يرون أنه إخباره بالغيوب وإن سائر أهل الاسلام قالوا كلا الأمرين معجز نظمه وإخباره بالغيوب .

٤ً — يذكر قولين في وجوه إعجازه وهما القول بأنه في أعلى مراتب البلاغة والقول بالصرفة وهو يرفض الرأي الأول لأنه لو كان في أعلى درجات البلاغة لكان لا حجة فيه لأن هذا يكون في كل من كان في أعلى طبقة وأما آيات الأنبياء فخارجة عن المعهود ، وبأن الله لا يُسأل عما يفعل ولا يُقال له لِمَ عجزت بهذا النظم دون غيره ، ولأنه يلزم من ذلك أن ينزل الله القرآن في جميع اللغات ليكون معجزاً للأعاجم إعجازه للعرب لأن العجم لا يعرفون إعجاز القرآن إلا بأخبار العرب ويبدو من خلال تناوله الموضوع أنه يؤيد الثاني الى جانب قوله بأن القرآن معجز لأنه قرآن فهو ينقد من يستشهدون ببعض الآيات دون

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بعض على إعجاز القرآن كآية «ولكم في القصاص حياة» فيقول إنهم لا حجة لهم فيها لأنها إما أن تكون وحدها معجزة ويكون باقي القرآن غير معجز وإما أن يكون كله معجزاً فيكون الاستشهاد بها دون سواها موهماً بأنه ليس كله معجزاً ثم يتساءل عن الاعجاز في مثل هذه الآية: «وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً» كيف يظهر وكيف يبرهن عليه وهل احتوى شروط هؤلاء الجماعة في أن يكون الكلام في أعلى درجات البلاغة ثم يقول لو أن كل كلام جاء في أعلى درجات البلاغة معجز لكان كلام الحسن وسهل بن هارون و . . . و . . . معجزاً ولا يصح هذا لأنه يجوز أن يؤتى بما يماثله وشرط الإعجاز عدم امكان المماثلة ولأنه لو كان إعجازه كما يقولون لما اشترطوا أن يكون المعجز ثلاث آيات فأكثر ولكانت الآية أو جزء منها كافية في الإعجاز .

وهو يعتقد بأن القرآن في أعلى درجات البلاغة من حيث أن الله قد بلغ به ما أراد فهو في هذا المعنى في الغاية التي لا شيء أبلغ منها وليس هو في أعلى درج البلاغة في كلام المخلوقين لأنه ليس من نوع كلامهم لا من أعلاه ولا من أدناه ولا من متوسطه ويرى القرآن معجزاً لأنه كلام الله تعالى والبرهان على ذلك أنه استعمل الحروف المقطعة في أوائل السور فلم ينل ذلك من بلاغته ولو استعمل رجل ذلك لعيب عليه لأنه خارج عن البلاغة المعهودة ويعقب على ذلك بما يفهم منه أنه يقول بالصرفة فيقول: «فصح أنه ليس من نوع بلاغة الناس أصلاً وأن الله تعالى منع الخلق من مثله وكساه الإعجاز وسلبه جميع كلام الخلق ثم يذكر أن القرآن حكى كلاماً قاله المخلوقون فكان معجزاً لأنه ورد في القرآن وصار قرآناً وليس معجزاً في كلام المخلوقين .

٥ – القرآن كله قليله وكثيره معجز في رأيه ولذلك يخطئ رأي الأشعرية القائل بأن أقل المعجز مقدار أصغر سورة محتجين بقوله تعالى: «فأتوا بسورة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

من مثله » بأن الله لم يقل بأن ما هو أقلّ من السورة ليس معجزاً ويذكر أن سائر أهل الاسلام على هذا الرأي ويقول : « ولا يختلف اثنان في أن كل شيء من القرآن قرآن فكل شيء من القرآن معجز » .

ويفصل في نقد من يجعلون أقل المعجز مقدار سورة فيتساءل عن المقصود بالسورة ما هو ؟ عدد آياتها أو عدد كلماتها أو عدد حروفها فاذا كان المعجز سورة كاملة كانت سورة البقرة إلا آية منها غير معجزة وإن قالوا مقدار السورة آيات وأقلها ثلاث كانت آية الدين غير معجزة وكان « والفجر وليال عشر والشفع والوتر » معجزاً مثل سورة البقرة وكان « والضحى والفجر والعصْر معجزاً » ؟ فإن قالوا هن متفرقات فلا يكون فيهن إعجاز سقط الإعجاز عن ألف آية متفرقة وإمكان المجيء بمثلها وذلك يبطل الإعجاز عن القرآن وكان « ولكم في القصاص حياة » غير معجز وهذا نقض لقولهم إنه في أعلى درجات البلاغة وإن قالوا إن المقصود بذلك عدد الكلمات أو عدد الحروف بطل احتجاجهم لقوله تعالى : « فأتوا بسورة من مثله » لأنهم جعلوا معجزاً ما ليس سورة ولم يقل تعالى مقدار سورة وبذلك يلوح تمويههم ، ثم يناقض ابن حزم قول من يقول إن المعجز عدد السورة حروفاً بنفس الطريقة ويردّه ويتابع المناقشة فيقول : إذا كانت الآية منه أو الآيتان غير معجزة وكانت مقدوراً على مثلها فكل القرآن يكون حينئذٍ مقدوراً على مثله وهذا كفر فإن قالوا اذا صارت ثلاث آيات صار غير مقدور عليها قيل لهم هذا غير قولكم إن إعجازه هو من طريق البلاغة لأن طريق البلاغة في الآية مثله في الثلاث .

وخلاصة رأيه أن القرآن معجز لأنه قرآن فكل كلمة فيه معجزة وكل حرف فيه معجز إذا عدّ من القرآن فاذا لم يعد منه لم يكن معجزاً كما لو ذكرت في خبر على أنها ليست قرآناً وأن القرآن استعمل أشياء تخالف البلاغة فيما لو كانت في كلام الناس وعدت فيه معجزة مثل ادخاله معنى دخيلاً بين معنيين لا يكون بينهما في العادة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وعلى هذا فان ابن حزم لا يرى القرآن معجزاً ببلاغته وأن في استطاعة الناس أن يأتوا بمثله بلاغة مع اعترافه بأنه في أعلى طبقات البلاغة . ونراه من جهة ثانية يخالف طريقة المتكلمين فهم يجعلون إعجاز القرآن وسيلة الى اثبات أنه منزل من عند الله وإثبات النبوة وهو بعكس الأمر فيجعله معجزاً لأنه كلام الله وقد سبقه الى هذا بندار الفارسي فيما رواه التوحيدي (الاتقان للسيوطي ، فصل الاعجاز ج ٢ ص ١٩٨ ـ ٢١٣) . ومن مميزات ابن حزم أنه يستعمل حججاً قوية في الرد على من يقولون بالاعجاز البلاغي . وأرى أنه عرض رأيه عرضاً حسناً قوياً وإن كنت أرى أن القرآن يمتاز في جملة ما يمتاز به بأنه في الدرجة العليا من البلاغة .

٩ ــ الخفاجي :

وممن له رأي في الاعجاز في هذا العصر ابن سنان الخفاجي الحلبي (٤٦٦ هـ) وقد أورد آراءه في الإعجاز في كتاب « سر الفصاحة » في علوم البيان وهو يرى فيه أن علم الفصاحة ضروري للأديب ليحسن قول الكلام ونقده . (سر الفصاحة للخفاجي ص٣ و ٤) كما أنه ضروري للعلوم الشرعية لأن المعجز الدال على نبوة محمد هو القرآن ويقول إن هناك قولين في الخلاف الظاهر فيما به كان القرآن معجزاً القول الأول خرق العادة بفصاحته وعلم الفصاحة ضروري للقائل بهذا حتى يعلم بم خرق العادة . والقول الثاني هو أنه معجز بصرف العرب عن معارضته مع أنها في مقدورهم ومن جنس فصاحتهم وهو يرى أن مسيلمة لم يأت بما يصح أن يسمى معارضة للقرآن لأن كلامه خال من الفصاحة التي وقع التحدي بها في الأسلوب المخصوص .

وهو يذكر تقسيم الرماني لتأليف الكلام إلى ثلاثة أضرب متنافر ومتلائم في الطبقة الوسطى ومتلائم في الطبقة العليا وينكر عليه هذه القسمة ويجعلها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قسمين متنافراً ومتلائماً ويذكر أن بعض المتلائم أكثر تلاؤماً من بعض كما يخالفه في قوله بأن القرآن متلائم في الطبقة العليا وغيره في الطبقة الوسطى وهو يعني بذلك جميع كلام العرب فليس الأمر على ذلك ويرى أنه لا فرق بين القرآن وبين فصيح الكلام المختار في ناحية الفصاحة وأن في كلام العرب ما يضاهي القرآن في تأليفه وهو ينكر على الرماني لجوءه الى هذه الحجة ليثبت للقرآن الإعجاز . والوجه الصحيح عنده هو الصرفة وفي هذا يقول : « وإذا عدنا الى التحقيق وجدنا وجه إعجاز القرآن صرف العرب عن معارضته بأن سلبوا العلوم التي بها كانوا يتمكنون من المعارضة في وقت مرامهم ذلك » وهو نفس رأي الشريف المرتضى في الصرفة الذي قلنا إنه يخالف رأي النظام قليلاً .

ويكمل الردّ على رأي الرماني بأن القرآن يتألف من ألفاظ مفردة جاءت في كلام العرب سواء اذا ادعى أن القرآن في الدرجة العليا أو في الدرجة الوسطى منها ، ولا يرى للقرآن ميزة من حيث تلاؤم الكلم ويورد رأيه الخاص في تنافر اللفظ فيقول قد يحصل من تقارب مخارج الحروف كما يحصل من تباعد مخارجها ويضرب لذلك أمثلة عدة .

وينكر الخفاجي قول القائلين بأن كل أقسام القرآن معجزة ومتساوية في الفصاحة ويقول إن بعض القرآن أفصح من بعض ويقدم أمثلة مؤيدة لرأيه عدة آيات ثم يمثل لرأيه هذا بقوله متسائلاً : « وليت شعري أي فرق بين أن يخلق الله وجهين أحدهما أحسن وأصبح من الآخر وبين أن يحدث كلامين أحدهما أبلغ وأفصح وهل يفرق بينهما الا مقترح » .

ولا يرى مانعاً من أن يكون بعضه أفصح من بعض لأن التوراة والانجيل والزبور وهي كلام الله لم تكن معجزة خرقها العادة بالفصاحة ويقول إنما منعهم عن القول بهذا أنهم جعلوا إعجازه في خرق العادة بفصاحته فكيف يكون بعضه أفصح من بعض . وهو ينقض رأيهم هذا بأنه لا مانع حتى في

هذه الحالة من أن تتفاوت المعجزات في العظم ويرجع الى القول بأن إعجاز القرآن إنما هو بالصرفة وليس ببلوغ الغاية في الفصاحة ٠

وخلاصة ما أتى به الخفاجي أنه لا يرى فصاحة القرآن كافية للبرهان على إعجازه ويقول بالصرفة على طريقة المرتضى ويرى أن بعض القرآن أفصح من بعض وهذا الرأي الأخير صحيح في اعتقادي وقد ذهب اليه ابن حزم كما رأينا حين عرض رأيه ٠

١٠ – عبد القاهر الجرجاني :

ويأتي عبد القاهر الجرجاني فيتزعم نظرية النظم في إعجاز القرآن فقد فصّل فيها وعرضها عرضاً مستفيضاً وانتقل بها من حيّز الألفاظ الى حيّز المعاني ٠ وهو متكلم وأديب ٠ ويعتقد كثيرون بأنه أول من ألف في علم البلاغة ٠ والجرجاني أول من نظم الأفكار التي كانت في هذا الموضوع وأبرزها في قالب علمي ٠ وكتابه دلائل الإعجاز دليل على أن البلاغة في شكلها العلمي ظهرت من فكرة إعجاز القرآن ٠ فهو إنما كتبه إذن لغرض ديني ٠ ويناقش عبد القاهر مسائل في البلاغة والنحو ويقول بأنه لا يستطيع أحد أن يعرف إعجاز القرآن حتى يحسن تمييز أنواع النظم المختلفة ويحسن فهمها وقد ألف الجرجاني كتاباً آخر في البلاغة هو كتاب «أسرار البلاغة» ٠ وبه يتمّ ما بدأه في دلائل الاعجاز إلا أنه يهتم بصفة خاصة في بيان قيمة البلاغة وسرها من الوجهة النفسية من حيث مراعاة وقع الكلام في النفس ومن حيث مراعاة أحسن الطرق لإفهام النفس الانسانية ما يريد أن يؤديه المتكلم ٠

وقد سبق أن ذكرت أثناء عرض آراء الخطابي أن للجرجاني شرحين على كتاب الخطابي كبيراً سماه المعتضد وصغيراً وأنهما كانا مقدمة لوضع كتابيه المشهورين : دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة ٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ويمكن تلخيص آراء الجرجاني :

١ — لا يقوم إعجاز القرآن في رأيه على الأغراض الأدبية المقصودة في وضع الكلام من حيث معانيها العامة كوصف الكريم بأنه كالبحر أو وصفه بالكرم بصورة مجردة بل بالصورة الجميلة التي تنقل المعنى من السذاجة الى الحلية في التعبير والجمال في الأداء وحسن العرض للمعنى بمعانٍ ثانوية فرعية تكمله وتضفي عليه جمالاً وخلابة فيحسن فيه التصوير ويقوى المعنى بما يستعمله المنشئ من أساليب النظم البلاغية من تقديم وتأخير واستعارة على ما تبحث فيه علوم المعاني والبيان والبديع . وليس الكلام عنده معجزاً لأنه حكمة . وليس الإعجاز أيضاً في تلاؤم الألفاظ مفردة أو مركبة (دلائل الاعجاز ص ١٩٦) فانها موجودة كذلك في كثير من كلام العرب وإنما هو في حسن النظم . وهو يرى النظم قائماً على مراعاة التلاؤم بين معاني الكلمات المفردة تلاؤماً يساعد على أداء المعنى العام المقصود بجمال وقوة . ويتم نظم هذه المعاني نظماً متلائماً بالاستعانة بعلم النحو في معناه الواسع في مفهوم عبد القاهر وهو يشمل علمي النحو والبلاغة . فنحن لا نقدم ونؤخر في الكلام أو نقوم بعمل فيه فنستعمل المعاني والقواعد النحوية الا لتخدم المعنى وتحسن سبكه فتجيد التلاؤم بين معاني الألفاظ . فالنحو بمعناه الواسع إذن خادم لنظم المعاني وليس خادماً للألفاظ (ص ٣٥ من دلائل الإعجاز) وقد كسر عبد القاهر الجرجاني كل كتابه دلائل الإعجاز على شرح هذه الأنظار وعرضها والرد على مخالفيها ونقض ما سواها وقد أحسن في عرضها كل الإحسان وإن كان قد أهمل ناحية موسيقى الألفاظ وفصاحتها مفردة ومركبة إهمالاً لا يغتفر له ولعله إنما بالغ في نصرة المعاني لمبالغة غيره في نصرة الألفاظ بمجرد رد الفعل النفسي الذي يقابل المبالغة بمبالغة مثلها أو اشد منها تماماً كما في الاتجاه .

٢ — يذكر عبد القاهر أن النبي قد تحدى العرب الذين عرفوا المقصود من هذا التحدي ولكنهم عجزوا عنه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

٣ – ليس الإعجاز بمعاني الكلمات المفردة وإنما هو باجتماعها منظومة لتؤدي معنى شاملاً كما قلنا وليس كذلك في الموازنة بين كلمات وكلمات القرآن حركة وسكوناً وإلا كان مسيلمة قد قلد القرآن .

٤ – ليس إعجاز القرآن في مراعاة القواطع والفواصل فليس ذلك بأصعب من مراعاة الوزن والقافية في الشعر ويذكر أن العرب كانوا قادرين على مثل ذلك كما يذكر أن أحدهم ألف كلاماً له فصول وربما كان يقصد المعري (ص ٢٩٦ – ٢٩٧ من دلائل الإعجاز للجرجاني) .

٥ – يذكر قول الجاحظ (ص ٢٩٨ من الكتاب المذكور) الذي يستفاد منه أن العرب أدركوا بالحدس وفي صريرة نفوسهم بلاغة القرآن وعجزوا عن مجاراتها ثم يقول الجرجاني إن العرب لم يفهموا من الإعجاز الفواصل والسكنات والحركات بدليل أنهم لما قارنوا بين : « ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب » وبين « قتل البعض إحياء للجميع » لم ينظروا الى ذلك بل الى بلاغة المعنى . وأنا أشك في أن هذه المقارنة قد حصلت فعلاً زمن النبي وأميل الى أنها حصلت بعده بزمن طويل في عهد الترجمة والى أن الجملة الأخيرة « قتل البعض إحياء للجميع » قد ترجمت عن كتب أجنبية .

٦ – يشنع على القائلين بالصرفة (ص ٢٩٩ من الكتاب نفسه) وينقض رأيهم بأنه اذا كان الأمر كذلك فلماذا يبهرهم القرآن إذن . أو ليست دهشتهم لشيء وجدوه فيه غريباً وفوق طاقتهم ؟

٧ – لا يمكن أن يكون الإعجاز في الاستعارة وما يتعلق بالبديع لأنها ليست موجودة في كل آيات القرآن وهو يسير في هذا على غرار القاضي الباقلاني .

٨ – ينعي عبد القاهر على من يجعل الإعجاز في استعمال غريب الألفاظ كما ينعي على من يجعلونه في استعمال الألفاظ السهلة الخالية من الثقل على اللسان (ص ٤ ٣ من دلائل الإعجاز) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

٩ً — إنما كانت معجزة النبي بلاغة القرآن لأن معجزة كل نبي كانت في الناحية التي اشتهر بها قومه . (ص ٣٦٥ منه) .

١٠ً — ينكر أن يكون القرآن معجزاً لمجرد كونه كلام الله — وهو رأي ابن حزم وبندار الفارسي — (ص ٣٩٨ منه) .

١١ً — لا ينكر في موضع (ص ٤٠١) من كتابه شأن خفة الحروف في النطق في فضيلة الكلام وإنما ينكر أن تجعل وحدها سبيلاً الى الإعجاز .

١٢ً — يؤمن بأن عمدة إدراك البلاغة في النظم والاعجاز فيه هو الذوق والاحساس الروحي وكثرة الاطلاع على كلام العرب . (ص ٤١٨ من دلائل الإعجاز) .

وهنا لا بد لنا من القول بأن عبد القاهر في كتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة كان قدوة من جاء بعده من المؤلفين في البلاغة وأعجاز القرآن ببيانه وأنه يعد مرن الفكر في جعله الإعجاز في شيء غير محسوس تماماً . وليس لنظريته قوة البرهان الرياضي الذي ينفي أو يثبت بالأدلة العقلية المشتركة بين كل الناس . وإنما يقوم الإعجاز في نظره بالمعاني ويدرك بالذوق . وذلك بوضعه نظرية مرنة اذا تأملناها أدركنا أنها تساعد المؤمن بإعجاز القرآن على دعم إيمانه ولكنها لا تقنع المنكر او الملحد وذلك لأن الاقناع فيها قائم على الذوق الأدبي الفني وعلى شيء من الشعور الديني ومحال أن يجد الملحد او الشاك في القرآن من الروعة والجمال ما يجده المؤمن وقد يكون كتاب آخر يؤيد عقيدته وأفكاره أروع عنده من القرآن . ولا يتيسر أن يتفق الناس في تقدير الجمال في القول كما أنهم لا يتساوون في تقدير الجمال المدرك بالحس . ونرى أن مقاييس الجمال، حتى ما وضع منها في عصرنا مهما بلغت من الدقة، لا توحد أذواق الناس . فنظرية عبد القاهر إذاً لا تحسم الخلاف وان كان ما جاء به يبدو مسلماً به في تصور الكلام البليغ لا سيما وأنه قد أحسن عرض نظريته . ونستطيع أن نلمس من كلامه أنه مفكر استفاد مما ذكره سابقوه وما كان مقلداً أو جامعاً لآرائهم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بل هو مبتكر ألبس نظرية النظم ثوباً قشيباً ونقلها من حيّز الألفاظ الى حيز المعاني . ومع أن قواعد البلاغة التي جاء بها ليست بقاطعة كما قلنا في حسم النزاع فانها على كل حال محاولة جدّية مجدية تساعد على تذوق الأدب وفهمه وكتابته ومراعاة الصحة والجمال فيه . وقد أفرغ هذه القواعد التي جاء بها عبد القاهر من جاء بعده من علماء البلاغة في قوالب جامدة جافة ذهبت بعلم البلاغة عن غايته وأبعدته عن التجديد والابتكار وأخضعته للمنطق والتعنت الفلسفي العقلي وأهملت ما يساعد على تنمية الذوق الأدبي كما أنها لم تكمل ما أنقصه عبد القاهر ولم تكن الا عالة عليه وعلى من عاصروه أو سبقوه .

ولم تكن مهمة السكاكي أول من صنف وبوّب هذا العلم بالشكل الذي نعرفه الآن الا اختصار ما جاء به عبد القاهر وتبويبه والاسترسال في إخضاعه للبراهين المنطقية والتأثيرات الفلسفية .

وبالانتهاء من الكلام على عبد القاهر أنتهي من الكلام على من درستهم ممن ألفوا في فكرة الإعجاز في هذا العصر وكان لهم بحث أو اجتهاد فيها .

تلخيص ونقد :

إذا أردنا أن نعرض فكرة عامة عن هذا العصر قلنا : إن كثيراً من الباحثين في الإعجاز كانوا مجرد جامعين لآراء من سبقوهم أو مقلدين وإنه قد ظهر القول بصورة أصرح في نظرية أن القرآن معجز لأنه كلام الله على لسان ابن حزم وظهر قول داعي الدعاة بأن القرآن معجز بما فيه من معاني الحكمة ويبدو واضحاً في زمن عبد القاهر الجرجاني أن التيار الفكري كان متجهاً نحو الإعجاز بالألفاظ نخشي من ذلك عبد القاهر على فكرة الإعجاز أن تزول اذا وجد بين الأدباء من يستطيع معارضة هذه الصنعة اللفظية فناصر فكرة النظم القائم على تلاؤم المعاني في خدمة الغرض العام المقصود تلاؤماً يراعى فيه التصوير وحسن التعبير والصياغة . وظهر القول بأن بعض القرآن أفصح من بعض على لسان ابن سنان الخفاجي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

القرن السادس

أشهر من تكلم في قضية الإعجاز في هذا العصر متكلمان : أحدهما له ابحاث واسعة في الفلسفة وهو الغزالي والثاني مؤلف في السيرة النبوية وهو القاضي عياض ، ومفسران أحدهما من المعتزلة وهو الزمخشري والثاني ابن عطيّة ، وفيلسوف كان يسعى الى التوفيق بين الفلسفة اليونانية ومبادئ الدين الاسلامي وهو ابن رشد . وسأتحدث على كلّ واحد منهم على حدة فيما يلي .

١ً — الغزالي :

يرى الغزالي أن القرآن مسوق لمعنى واحد وهو دعوة الخلق الى الله تعالى وصرفهم عن الدنيا الى الدين (الاتقان للسيوطي ج ٢ ص ١٩٨ وما بعدها) وكان يذهب الى أن في القرآن جميع العلوم الدينية والدنيوية وأنها كامنة في مطاويه لا يدركها الا العالمون فكأنه يرى أن هذا وجه من وجوه الإعجاز لأنه انما ذكره قاصداً به أن يبين عظمة القرآن . قال الأستاذ أمين الخولي بعد ان ذكر فكرة اتساع القول في احتواء القرآن جمل العلوم جميعاً واشتماله الى جانب العلوم الدينية اعتقادية وعمليـة وظاهرة وخفية سائر علوم الدنيا : « والغزالي الى عهده كان أكثر من استوفى بيان هذا القول (الإحياء الباب الرابع في فهم القرآن وتفسيره بالرأي من غير نقل ص ٢٥٩ — ٢٦٤) وأن في القرآن رموزاً ودلالات على كل ما اختلفت فيه الخلائق في النظريات والمقولات والقرآن يشير الى مجامع العلوم كلها وبعد أن يذكر الغزالي العلوم ويذكر أن منها ما سوف يوجد ومنها ما اندرس يذكر أن اوليات العلوم كلها في القرآن فإنها جميعها مغترفة من بحر واحد من بحار معرفة الله تعالى وهو بحر الأفعال ..... ويشير أخيراً الى أنه لو ذهب يفصل ما تدل عليه آيات القرآن من تفاصيل الأفعال لطال ولا تمكن الإشارة الى مجامعها » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ويلاحظ أن الغزالي بين المؤلفين الذين تكلمنا عنهم حتى الآن هو أول من يعرض لهذه الفكرة القائلة باحتواء القرآن على جميع أوليات العلوم الدينية والدنيوية وسنرى كيف يتوسع فيها المتأخرون .

٢ – القاضي عياض :

وللقاضي عياض (٥٤٤) في كتابه « الشفاء ص ٢١٦ – ٢٣٧ ط دار السعادة سنة ١٣١٢) رأي في الإعجاز أورده السيوطي في الاتقان (ج ٢ فصل الإعجاز) وخلاصته أن إعجاز القرآن في الإيجاز والبلاغة والأسلوب الغريب والإخبار بالمغيبات والإخبار عن الأمم الماضية على أمية النبي وتعجيزه أيضاً لقوم في قضايا لم يفعلوها كقوله لليهود : « فتمنوا الموت ان كنتم صادقين » ومن فضائله الروعة في قلوب السامعين – ويذكر بهذه المناسبة اسلام جبير بن مطعم حين سمع النبي يقرأ في صلاة المغرب سورة الطور – وأنه آية باقية لا يعدم ما بقيت الدنيا مع ما تكفل الله بحفظه وأنه لا يخلق على كثرة الرد وجمعه لعلوم ومعارف لم يجمعها كتاب من الكتب وذلك في كلمات قليلة وأحرف معدودة .

ونتبين من رأي القاضي عياض في الإعجاز أنه لم يأت بجديد وإنما لخص تقريباً رأي الباقلاني وزاد عليه جمع القرآن علوماً ومعارف لم يجمعها كتاب قبله على إيجازه . ويعرض لرأي الصرفة أثناء كلامه فلا ينكر هذا القول بل يثبته إثباتاً مبهماً ضعيفاً ويقول إنه على هذا القول أيضاً معجز .

٣ – الزمخشري :

يبني الإمام الزمخشري (٥٣٨) فكرة الإعجاز في الكشاف على خصائص الكلمات والنظم في التعبير ويوافق رأي الجرجاني قليلاً فالإعجاز عنده قائم على المعاني من تعريف وتنكير وتقديم وتأخير ثم على ما يتصل بعلم البيان ويذكر الدكتور محمد خليل الخطيب في مقدمة حسن الصنيع للبسيوني – وأوافقه على رأيه –

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

أن الامام الزمخشري ينبغي أن يعدّ بعد عبد القاهر في صدر الواضعين لفن البيان ويذكر بهذه المناسبة رأي ابن خلدون في «أن ثمرة فن البيان فهم الإعجاز من القرآن وأن المفسرين أحوج الناس الى هذا الفن وأن أكثر تفاسير المتقدمين غفل منه حتى ظهر جار الله الزمخشري ووضع كتابه في التفسير وتتبع آي القرآن بأحكام هذا الفن بما يبدي البعض من إعجازه فانفرد بهذا الفضل على جميع التفاسير» .

ومن الحق أن نقول إن الإمام الزمخشري يعدّ بين المفسرين أول او اكثر من اهتم ببحث البيان في القرآن والى جانب تطبيقه العملي فن البيان في إظهار إعجاز القرآن نراه أثناء تفسير آية التحدي في سورة الإسراء : «قل لئن اجتمعت الانس والجن ... الخ الآية» يقول بضرورة كون القرآن مخلوقاً حادثاً حتى يكون معجزاً ويصح به التحدي فإن كان قديماً كان محالاً على البشر ولا يصح أن يتحداهم النبي به فيقول : «والعجب من النوابت - يقصد بهم نوابت أهل السنة - ومن زعمهم أن القرآن قديم مع اعترافهم بأنه معجز وإنما يكون العجز حيث تكون القدرة فيقال الله قادر على خلق الأجسام والعباد عاجزون عنه وأما المحال الذي لا مجال فيه للقدرة ولا مدخل لها فيه كثاني القديم فلا يقال للفاعل قد عجز عنه ولا هو معجز ولو قيل ذلك لجاز وصف الله بالعجز لأنه لا يوصف بالقدرة على المحال إلا أن يكابروا فيقولوا هو قادر على المحال فان رأس مالهم المكابرة وقلب الحقائق» .

وقد ردّ عليه في هذا الشيخ ناصر الدين احمد بن محمد الاسكندري المالكي (٦٨٣) وقال بأن اعتقاد اهل السنة يقوم على أن مدلولات العبارات قديمة قائمة بذات الباري تعالى يطلق عليها قرآن كما أن الألفاظ الدالة التي بين أيدينا يطلق عليها قرآن ايضاً والمتحدى به والمعجز هو الدليل أي الألفاظ الدالة لا المدلول وإنما يتحرز العلماء من اطلاق هذا القول لسببين الأول أن السلف كفوا عنه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

فاقتفى الخلف آثارهم والثاني أن هذا القول ربما أوهم الضعفاء بأن مدلول القرآن حادث لا قديم . (تعليقات الاسكندري على كتاب الكشاف في الحاشية) .

وكذلك علق الشيخ محمد عليان المرزوقي في الهامش المطبوع مع الكشاف على قول الزمخشري بكلام له نفس معنى كلام الاسكندري . وكلام الزمخشري يدلنا على أن مسألة خلق القرآن كانت ولا تزال قيد بحث علماء الكلام حتى عصره .

ويذكر الزمخشري أثناء تفسير آية سورة البقرة « وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا » أن الله جاء في هذه الآية بما هو الحجة على إثبات النبوة وذلك حين يتحداهم فيدركون عجزهم ويعلمون أنه من عند الله .

ويقول الزمخشري في مقدمة تفسيره ما معناه إنه لا بد من علم البيان والمعاني لإدراك معجزة رسول الله ومعرفة لطائف حجته وأن يوجد ذوق في الفكر والادراك ودراية بأساليب النظم والنثر ويقول إن القرآن معجز على وجه كل زمان ودليل إعجازه سكوت العرب عن معارضته مع كثرة عنادهم وتوفر دواعيهم واشتهارهم بالانفة .

وآراء الزمخشري جاءت في تفسيره ولم أعرف أنه وضع في هذا البحث كتاباً خاصاً أو أفرد له باباً .

(يتبع) نعيم الحمصي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net